# جُرْعَاتٌ حارَّةٌ

الكتاب : جُرْعَاتٌ حَارَّةٌ
المؤلف : شيماء زايد
تصميم الغلاف : شيماء زايد
تدقيق لغوي : عزيزة الخولي
رقم الإيداع : ٢٠١٩/٢٦٨٣١
الترقيم الدولي : ٦-١٨٨-٧٧٨-٩٧٧-٩٧٨
الطبعه الاولي : ٢٠٢٠

للنشر والتوزيع
٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

شيماء زايد

# جُرْعَاتٌ حَارَّةٌ

مجموعة قصصية

ن
للنشر
والتوزيع

# إهداء

## إلى نور..

يا ابنة الحب الذي ربا بين قلبين حلما بك قبل أن يلقى أحدهما الآخر

إليك أكتب، وبك أحيا

## إلى أحمد..

الحب الذي صدقته فصدقني، وصار الأصدق والأقوى

إلى الاكتئاب.. الذي لا تجدي معه لعبة المطاردة..

ساحة الروح تتسع للمواجهة.

# قلب الصلصال

يمرر الأيام أسفل قدميه بخطوات محفوظة، لم تكن تمر قدر ما تدور في دوائر ثابتة، لا يجد عليه سوى صراخ المفاصل قبل أوانها.. تتوحد يداه مع الخليط الرطب، تتقارب الألوان في التكوين؛ فاليدان اللتان دربتا ضم الطين منذ الصغر، اصطبغتا به؛ فتناغم الأصل والناتج، يبلل يديه بالماء ويعاود ضم الآنية.. الحنين يقلب ذكرياته المنقوشة أسفل قدمه على الطبلية، تلك التي وطئتها قدم أبيه وجده، قبل قليل كان يذيب «الرتش»، يصفيه داخل الحوض، يحمل المعجون المصفى، ويخلطه بالتراب الأحمر، يتصدر أبوه المشهد، يملي عليه النسب ويتابع العجن.. يسأله أن يوزع ضغطات قدميه على جوانب الخليط، لا يكف عن إعطاء التعليمات.

طالما تضجَّر من أوامره ونواهيه، ما إن حصل على شهادته الجامعية التي لم تمنحه الكثير، حتى هجر قريته وجاب المدن.. تلقفته الشوارع، وعصره الزحام، وأدرك أن الخلق اصطبغوا بالقطران، طالهم عفن الرطوبة داخل المباني المعتمة، أو قسوا فصاروا أحجارًا نارية، ما إن اصطكت حتى يندلع الجحيم..

عاد إلى الطين، صحبته حميمية رائحة الصلصال حتى البيت، كانت أمه تقف في نافذتها تلملم زوايا الفاخورة أسفلها – ما ظهر منها وما خفي– داخل عينيها، بينما تنتقي الحصى من بين حبات الأرز.. تهللت قسمات وجهها نادت عليه، خرجت شقيقته مهرولة نحوه، احتضن الصبية، تلقفته أمه داخل أحضانها المبللة بالدمع.

**لم يعاتبه العجوز، لم يسأله لِمَ العودة، ألقى عليه نظرة مطولة، وسأله أن يحمل الجِرَار الجافة للحرق..**

**انتبه لتتمة الفخارة بين يديه، كشطها من فوق القرص الدوار.. وضعها جوار أخواتها، كانت خضراء غضة، تمامًا كحاله عندما سقط الجدار الواصل بين الفاخورة والبيت، كان ضئيلًا جدًّا ليستر ما انكشف.. ليِّنًا جدًّا ليقيم ما تهدم.. حاول شد قامته لملء الفراغ، وظل ظهره عاريًا تلفحه الشمس حتى جف، ووجب حرقه.**

**الأب يزداد اصفرارًا، يخفي مرضه من أمد بعيد، يتآكل في صمت، تتضخم بطنه وينوء بحمله، ويرفض العلاج تعففًا؛ فمن أين له بفواتير الأطباء؟**

**يحمل الأواني الجافة كعادته، يلقمها السعير المتعطش للفح جنباتها.. تنتشي ألسنة النار بجني ضرائب النضج.**

**يغادر الفرن متجهًا إلى دولاب التشكيل، تمر جارته تحمل رضيعها الأول ترسل نظرة تحمل اللا شيء، تبدلت النظرة التي طالما حملت قديمًا ولهًا.. رجاءً.. فلَوْمًا.. صارت محايدة باهتة، بعدما لم تجد ردًّا سوى نظرات الانكسار.**

**المرض يفتك بكبد أبيه.. الديون.. إصلاح البيت.. جهاز البنت.. ركود بضاعته.. هوانه على الناس، أشياء تشق النظرات بحملها فتنكص منكسرة.**

يزيل الزوائد عن الفخارات، يبتسم لتوجيهات يستدعيها من الذاكرة في الرسم والحفر، يعمل أدواته الحادة في أعناقها الطويلة.. يتحسس موضع قلبه باحثًا عن صلابة ما، يجده ما زال لينًا، يتسع لحفر المزيد من الأوجاع.. ينتبه لخطوات أمه المتثاقلة تحمل الطعام.. وجه أبيه الذي انكمش كثقب صغير وسط أكوام الطين، صامت دائمًا يفتقد أوامره ونواهيه، ابتسامة أخته التي انطفأت.. يتجه نحو الفرن الموقد.. يحتضنه، يلصق صدره بجدرانه الملتهبة.. يتألم.. يعاود الأمر، جرعات الحرارة تحرق جلده ولا ينال النضج.

ضغط

ود ألا يزعجها، إلا أن ارتعاشة يده القابضة على المفاتيح المعدنية، صرير عمر مفصلات الباب، ووقع ارتكازات سنادته الطبية ذات الثلاثة أضلاع والأربعة قوائم، كلها أشياء حالت دون ذلك.

يتحسس خطواته ناحية غرفتهما، تفتح عينيها في وهن أسفل عصابة رأسها، تلقي نظرة على يديه الفارغتين من الدواء، تبتسم في أسى.. ينكس رأسه رافعًا كفيه المجعدتين الفارغتين إلا من قلة الحيلة.. تدعي أنها الآن أفضل، وشقوق الشيخوخة المحفورة على وجهها الشاحب تنفي.

يحضر لها كوبًا من شراب منقوع الدوم، يساعدها في النهوض، تجلس على الفراش مسندة ظهرها إلى صدره، ترتشف الشراب بينما تتلقى ربتات أنفاسه الدافئة على عنقها، يستنشق رائحة الشعر الأشيب، يتوحد مع تلك الرائحة الحميمة المشبعة بالألفة.. يزيح الرباط الأبيض عند الجبهة، يمشط شعرها بأصابعه الجافة المبرقشة بالعروق الزرقاء المنتفخة.. يقسم خصلات الشعر إلى أجزاء ثلاث، يجدل لها ضفيرة موصولة ببدايات الرحلة، تبتسم مستسلمة ليديه غير المدربتين كأول مرة، كان شعرها الفاحم المتطاير يخبئ ملامح وجهها، جمعه خلف أذنيها وبدأ بتضفيره بحنان أب يمشط شعر فتاته للمرة الأولى.. مستسلمة لجذبات أصابعه المبتدئة بنشوة غامرة.

يستلقيان بعضهما جوار بعض يتغافلان عن العنكبوت المعشش في سطح الغرفة، يحوطها بذراعه، تتلامس ساقياهما النحيلتان فيأتنسا فوق سريرهما، ذلك السرير الذي شهد أحاديث الليل الممتدة للنهار.. ضحكاتهما.. خصامهما مولين ظهريهما بعضهما لبعض أول الليل، منتهزين ساتر النوم منتصف الليل لتحتضنه، ويتلمس ملامحها بأصابعه ثم يستأنفا الخصام في الصباح من جديد!

جلسا هاهنا يقسمان راتبهما الأول معًا، كانت الجنيهات الاثنتا عشرة شهريًّا كافية جدًّا لحياة كريمة؛ حجز تذاكر سينما، وفسحة نيلية، وادخار القليل، ما بالها الآن لا تستطيع شراء شريط من دواء الحبوب الصفراء الذي اختفى فجأة، ولم يتبق من المعاش ما يكفي لكشف طبيب يكتب علاجًا جديدًا؟!

يتنهد زافرًا العمر من رئتيه المجهدتين، تضغط على كفه المستلقية على كتفها، تمسح على رأسه خالية الشعر، تتذكر شعره البني الأملس، وفاجعة ألا نسل لهما معًا.. بكت، احتضنها، ملست رأسه بكفها البض.

أخبرته أنه ابنها البكري، لم تخدعه فهو ابن قلبها الأول، أبوها، صديقها، حبيبها وسند الطريق.

أن يشيبا معًا متجاوزين كل الأوجاع والخذلان والركلات القلبية.. بطولة في زمن الأبطال الورقية.

تزيح الغطاء. تعتدل. تتحسس قدميها الأرض. تقف بحيوية عشرينية الروح، تطالبه بالنهوض للخروجِ بحثًا عن الدواء، متحاملة على ألم رأسها والدوار، ترتدي عباءتها وتعقد غطاء الرأس، تستند إلى عكازها المعدني المنتهي بقواعد أربعة، يتبعها مستندًا إلى أداته لتسيير المشي، يطرقان أبواب الصيدليات دون جدوى.. يجوبان الشوارِع المحيطة بخطوات السلاحف وأفئدة الطير، مكتفين بكونهما معًا، وثالثهما الضغط..

# الكتكوت أولا

(١)

كل المُسَكِّنات وتمارين الاسترخاء وكتب التربية، فشلت أمام تلك المناورات اليومية التي عليها أن تخوضها وحدها؛ لذا صنعت من وشاحها الأبيض راية استسلام، عقدتها على رأسها. لم تغضب لنظارتها المكسورة للتو مع سبق الإصرار والترصد، فقط رمَّمتها بشريط لاصق، ووضعتها أمام عينيها «المُبَروَزَتين» بالهالات الداكنة.

(٢)

يومًا ما كانت تتلمّس الحياة خلف شاشة الطبيبة التي ألزمتها ألا تغادر الفراش بضعة أشهر، مُلَوِّحَةً بالأشعة الضوئية والتقارير الطبية. ينطلق من «السونار» الصوت المحبب للنبض، تلمع عيناها بنشوة، تتلمّس بطنها المنتفخ مؤتنسة بتموِّجاته وركلات الأطراف الدقيقة، ويتملَّكُها القلق أوقات السكون، ويطمئنها بحركة عابرة بعد طول انتظار، تفسح له المجال بين أحشائها، يتشاركان التنفس والغذاء، وينساب حنانًا في الأوردة.

(٣)

الصغير يرفض أن يغادر الأرض. يتقلَّب على بطنه محاولًا السباحة بأطرافه الأربعة كضفدع صغير، يرفع رأسه ليرى المسافة التي قطعها فيجدها لا شيء، تحاوطه الضحكات فيضحك ويطرق خجلًا، ثم يحاول من جديد. يصرخ إذا ما حاول أحدهم إلهاءه أو إثناءه، ولا يكفّ عن المحاولة.

(٤)

يلاحقها أينما اتجهت بالأسئلة، لِمَ؟ كيف؟ وأين؟ ليس لها حق استخدام الحمَّام أو تناول الطعام والصلاة أحيانًا. ماما، ماما، ماما «سيمفونية» دائمة التكرار، تجعلها تلعن صباح مساء تلك الرغبة البلهاء في سماع صوته قبل الأوان. تفتِّش غرفتها عن باب أو ممر سري علَّها تجد غرفة عازلة آمنة للاختباء، وتراودها أحلام اليقظة بالتحليق بعيدًا عبر النافذة لمساحة هادئة.

## (٥)

**الفرخة أولًا أم البيضة؟**

**يباغتها الصغير بسؤاله الوجودي كعادته، تتكئ على أشلاء كتب التربية بينما تحاول رفع وجهها على كفها، تستحضر فواتير ملابسه، وألعابه، والحفَّاضات، وزيارات الطبيب ومُدَّخرات دراسته، محاولة تذكُّر تلك المرّة الأخيرة التي اقتنت لنفسها فيها زوجًا من الجوارب.**

**– ماما: الفرخة أولًا أم البيضة؟**

**– الكتكوت يا حبيبي، الكتكوت أولًا وأخيرًا، والعشّة بمن فيها رهن إشارته.**

# مشهد علوي

المقاعد الأمامية تمنحك مساحات أفضل للرؤية.. تندمج كليًّا مع العرض، وتصير جزءًا منه، المسرح مصيدة صفراء تستهوي الهاموش والفراشات سواء بسواء، مغرٍ للجميع كقطعة حلوى صعبة المنال مجهولة المصدر، لا يحاول أن يتتبعها أحد داخل المصانع الموبوءة، الجميع يحظون بالعرض ولا يتوقفون عن التطلع لفرصة في الصفوف الأولى.. المسرح يضج بالفوضى.. يتشقلبون داخل المساحة المسموحة، تصدح أصواتهم بالغناء، وتجلجل الحناجر.. «يسترك هات حبه بقرش» والقرش صار بسارايا نافقة يتلقفها السمك الأزرق، «الليلة الكبيرة» وكل الليالي كبيرة.

«والعالم كتيرة» بسطاء ومثقفون ومدعون.. نساء ورجال وشيوخ وأطفال يجيدون التصفيق والتهليل والاعتراض والصمت كثيرًا جدًّا يحترفون الصمت..

أرضية المسرح اللميع تتسع للجميع، تحتضن مشاعرهم المضطربة كميدان عام، وينتشون بملامسة سطحها من حين لآخر، بينما زنبركات أقدامهم تدفعهم لأعلى، ويحلقون داخل ساحة العرض – ما بين دفتي الستار– دون قيد.

الأراجوز الصغير كان يظهر برهة من حين لآخر يصرخ في الجمع انظروا إلى أعلى، فكانوا يزجرونه بنظرات عابرة ويواصلون الهرج..

الأرجواز الذي خفت صوته، وابتلعته الكواليس مر كأن لم يكن، تناسوا هتافه بقلوب راضية..

فوق أرؤسهم ألوان، وأضواء، وعلم مكرر كزينة، يحمل هوية معلقة، ويعجز عن الرفرفة.. في الأعلى قليلًا، خارج دائرة الرؤية ثمة قفازات سوداء تغطي كفيها ذات الأصابع الطويلة، وحتى الرسغ تراقب كل شيء بابتسامة رضا.. بينما تقبض جيدًا على مرابط الخيوط، تمنحهم وقتًا مستقطعًا من الحرية كي لا يتمردوا ويمزقوا روابط التحكم.. فليهنؤوا بتذوق التجربة دون شبع، ولتنعم دائمًا باستمرار العرض. المشهد العلوي لامرأة في منتصف العمر شاهقة البياض بشعر مصبوغ بالأسود، تقف من حيث لا يراها أحد.. ولا يود رؤيتها أحد.. وسلة معلقة من الأرجوزات المكبلة بقيود شفافة..

وليكتف الجميع بمتابعة العرض.

«زحمة يا ولداه.. كام عيل تاه»

مخاض

كشافات شديدة الإضاءة مُعلّقة في سقف الحجرة. ممرضتان تحاصرانها؛ تمسك إحداهن بذراعها الممددة، والأخرى تقيد حركاتها العصبية. تحاول تهدئة روعها. تستسلم كعادتها دائمًا، ينغرس السن المعدني الرفيع في وريدها.. يتدفق السائل.

تسترخي. تحكم الممرضة الغطاء على شعرها الأسود الهارب. تجفف العرق فوق جبينها العريض.. ترتخي أهدابها رويدًا رويدًا.

بُنيّ: لا تخش الحياة. فلتأت بوجه باسم؛ لا أريد أن تبدأ حياتك مثلي بالبكاء. فمنذ البداية حتى اليوم لم يجف الدمع يا ولدي.

الألم يفوق طاقتي، الأطباء من حولي يتحركون بعصبية، قواي تخور، هل أتحمل؟

نعم أتألم، ولكن لكل ميلاد آلامه. وأنا حملتك تسعة أشهر، أخفيتك عن كل الغوغاء، في انتظار قدومك السعيد.

أعلم أنك أكثر سلامًا بجوار قلبي.. أغذيك من شراييني.

أخشى أن يمتزج شقائي بدمائك، ألّا أستطيع حمايتك، فأنا من قبل لم أقدر أبدًا أن أحمي نفسي، واعتدت تعاطي الوجع.

هل لك أن تبقى عندك؟ هلا فقط أريتني وجهك؟ ترى ما شكل عينيك؟ هل تحمل انكساراتي ونظرة ضعفي؟

**لم أعد أتحمل الألم، منذ قليل، ولأول مرة أملك حق الصراخ. تلاشى الصوت، استمر الألم.**

**يوسف، يا من اخترت اسمك كاسم نبي الله؛ تيمنًا بحسنه وخلقه، ورغبة دفينة أن تنقذنا يا ولدي من سنوات الجدب.**

**هلا خرجت إلى الحياة سريعًا؟ أخشى زيغ نصالهم. أن يخطئوا الشق فيصيبك سوء. الرحم أضعف مما يظنون، ولن يحاسب أحد من أجلك فأنت كأمك بلا قيمة.**

**أوترفعني على العرش يا ولدي؟ كيف والعرش محجوز ولا أحد يجرؤ على الاقتراب.**

**أمن ولد على العرش كمن ولد في المستشفى العام؟ ولم لا؟ فأنت يوسف.**

**أبوك تركك بداخلي نطفة.. وعاد إلى موطنه حيث النفط، تاركًا لي بضعة أوراق أخذها جدك كما نصت البيعة، ووثيقة الطلاق المرسلة عبر السفارة.**

**أنا لم أختر تلك الزيجة، ولم أختر هذا الأب. لكنني اخترتك أنت. آثرت أن أبقيك علك تمنحني بعضًا من الأمان. أن تكون لي ذلك الرجل الذي لم أجده يومًا إلا سمسارًا أو مشتريًا. أن تسترضيك الكواكب والشمس والقمر فترضيني.**

**تغيب عن الوعي. تفيق داخل عنبر قديم ممتلئ بنساء ملقيات على سرر متهالكة. كلهن مجذوذات الشعر.**

**تتحسس شعرها فتجده قصيرًا مثلهن. بطنها مسطح فارِغ؛ تهرول بحثًا عن يوسف**

**بينما باب العنبر مغلق.**

لوتس

## اليوم الأول

من قلب الوحل مددت زراعي خضراء نحيلة، تسللت إنباتًا عبر النهر، الفجر لحظة الميلاد أشب فوق السطح، أتحاشى الطيور والضفادع.. أخوض معاركي وحدي كي أنجو.. أتفتح رويدًا رويدًا أعانق الحياة بوجه باسم.. أفيض من شغف التكشف، أراقب حركة السحاب وأجنحة الفراشات، فإذا داهمني المغيب بعضي يلملم بعضي، وأتدثر بغطاء الماء من جديد.

## اليوم الثاني

قوس قزح يلوح في السماء، وأنت على الخط الفاصل مع حدود الأرض تأسرني بالتماعة عينيك، وذلك العقد المبرم سرًّا بيننا بألا نشيح النظر عن نقطة الالتقاء، توجه معداتك نحوي تضعني تمامًا داخل الكادر الذي أردته، تتجاهل ما تحت الأوراق الخضراء المنبسطة؛ الساق والجذور والقواقع الملتصقة؛ فتفوز بالصور وأنا أبحث عن فرصة للفوز بك.

**اليوم الثالث**

**انتظرت أن تحمل الشمس بين كفيك لأمدد أوراقي في براح الضوء، لكنك آثرت أن تسدل ستائرك القاتمة، رسائل عطري لم تكن سوى استغاثات متعاقبة، صدقت أنك لم تفك رموزها وانكمشت هربًا من مد الخذلان على السطح الراكد، احتضنت ما تبقى من ذكريات أتلمس الدفء.**

**اليوم الرابع**

**يستثيرك هروبي والانغلاق، أما قد حلت بيني وبين الإصباح، غزوت بيئتي الآمنة وتركتني في زمرة الجرحى دون وجود أو رحيل.. ووقفت ببابي تنتظر اللقطة المرضية، فلا أنا كنت ولا أنت هنت، ربما لو أدركت معطياتي لاختلفت النتيجة.. لتحديث ناموس الكون وأزهرت من أجلك وحدك.**

**اليوم الخامس**

**من يجلب الوقت من سلة العمر المحترق، الليل والنهار يتعاقبان كأنهما يتسابقان في ساحة الكون.. وأنت تلملم عوائقك وتقلص بيننا المسافة بعدما بدأت أوراقي في المغادرة!**

**سأتساقط حلمًا حلمًا، لكن بذوري سوف تسكن في رحم الطمي وتنبت زهرات حسناوات، أترك لهن الوصية بأن يدرن رؤوسهن لكل الحُجب ويتبعن النور وحده.**

كيسا سكر

يراوغ ظله، يحاول جاهدًا أن يهرب منه.. تطارده الشمس الحارقة، تزيد انعكاسه ضآلة تفوق ضآلته.. يهرول داخل بذلته الصيفية باهتة اللون.. ينسل من بين الأجساد اللاهثة محاولًا التشبث.. بالكاد يعثر لقدمه على موضع.. تدور العجلات، يتحسس جيبه، يقبض على حافظة نقوده المهترئة، بينما تناضل كفه الأخرى للوصول للعارضة المعدنية.. يصل إلى محطته حيث لا محطة للوقوف.. يقفز راكضًا مع اتجاه سير الأتوبيس، يتعثر بقطعة حجر.. يتكوم فوق امتداده المعتم، يتراءى له الظل ساخرًا، ينفض عن بذلته الغبار، كثير من التعثرات اليومية والأماني العالقة.. يسير غير عابئ بامتداده، صياح وتدافع وأكياس تمرر هنا وهناك.. يغريه الزحام بالاقتراب، يستوضح الأمر من بعيد.. يكاد يلملم بعضه ويمضي.. لكنه لوهلة يشتاق للحظة ظفر يمر فيها داخل البيت محملًا بالانتصار، يمر مرور الفاتحين وسط تهليل وتصفيق..

يراقب كومة اللحم من بعيد، يبحث عن ثغرات تبلغه الوصول، يقرر الاقتحام.. كلما حاول المرور دفعته الجموع خارجًا.. لا يمل، يحاول مرة ومرات.. على بعد خطوتين من الوصول تقذفه دفعة من كوع أحدهم إلى نهاية التجمهر.. يعاود الكرة دون جدوى.. يتجادل رجلان.. يتشابكان.. يعتركان.. تبدو له الفرصة سانحة.. يعتلي الحشد البشري.. يسبح فوق الأجساد يصفعه هذا وتزجره تلك.. يصل أخيرًا إلى حافة صندوق السيارة، يصرخ في البائع مطالبًا بحصته.. يناوله النقود ويمنحه كيسين من الذهب الأبيض..

يحتضن غنيمته، سرعان ما تدفعه الجموع خارجًا.. يمسح العرق عن جبهته بظهر كفه.. يستند إلى جدار متهالك مغطى بملصقات قديمة لمرشحي مجلس النواب، يعدد خسائره؛ زرار فقد، وقطع في جيب البذلة يمكن إصلاحه، يتنفس أخيرًا.. يواصل رحلته...

يمر ببائع الفاكهة، يشتري بعض عناقيد العنب للاحتفال.. يصعد الدرج في حذر؛ حتى لا يتعثر بالدرجات المكسورة بينما هو مشغول بحمله.. يدق جرس الباب على غير عادته.. ليس لانشغال يديه عن استخراج المفتاح من جيبه؛ ولكن رغبة في إعلام زوجته وأطفاله بوصوله..

يفتح الصغار، يتصايحون حاملين قرطاس العنب الورقي.. تخرج زوجته على أثر الضجة.. تلمح الأكياس في يد زوجها، تتهلل أساريرها تحملها عنه وتمضي لإعداد الغداء.. يغتسل من أثر المعركة.. يحاول ترتيب هندامه داخل مرآة الحمام المشروخة، يبتسم، يتجلى له فراغ موحش بين أسنانه، يغلق فمه سريعًا ويخرج ملبيًا نداء المائدة..

عقب الغداء يدخل المطبخ ليعد كوبًا من الشاي دون لوم أو تقريع.. يزيد من السكر كما يفضله.. يخرج إلى الصالة يرتشف من الكوب.. يجزع.. يحاول ستر امتعاضه خارجًا للشرفة.. يشاهد ظله ممتدًا بطول الجدار، ينفض عنه الفكرة ويعيد تذوق الشاي، يجده مالحًا.. يدرك حقيقة ما ابتاعه اليوم..

**يتصاعد صوت التلفاز من القهوة أسفل منزله.. لتشدو المطربة «سكر والله الدنيا سكر»**

**تتعالى ضحكاته.. ترمقه زوجته من الداخل يحتسي الشاي واجمًا.. بينما الأغنية مستمرة.**

# رائحة النور

الصورة المغبَّشة من أثر سوء الالتقاط، كانت وسادتها الأثيرة كُلَّما أنهكها الدوران في فلك الأزمات ملاذَها الآمن كُلَّما قلبت صفحات الذاكرة بحثًا عن طاقة حب تتزوَّد بها على الطريق. ابتساماتها المُنهَكَة، وهالتها السوداء، وملابسها غير المهندمة، وانحناءة خفيفة من ثقل الأيام الخمسة. وهو إلى جوارها بلحية نابتة، شعر غير مهذَّب، ووجهٍ شاحب يحمل شبه انبساط عجزت ملامحه عن رسمه. بينما تطلّ الصغيرة من زاوية الصورة بيد رقيقة مُثقَلَة بشرائط اللاصق الطبيّ و»الكانيولا«.

قطرة النور التي أرسلها الفجر مُبَشِّرة بالنهار تربو داخل رحمي، رغم الندوب والحفر أشقُّ لها طريقًا بين الرئتين وأتنفسها خارج نطاق الطقس. رائحة النور التي فاحت من داخل اللفافات القطنية، وصارت تغذى خلاياي بعبير الونس. القلب الأخضر الذي جاور قلبي تسعة أشهر، وصرت أنبض بالقلبين معًا، ينشطر فتتناثر النبضات قلقة بيننا.

تأسرني بالتماعة عينيها، تبكي، تبتسم، ترتشف مني الحليب وأرتشف منها السلام، تصرخ، تناغي، تتقلَّب، تتكشَّف أطرافها الأربعة، تحبو، تعرض، تمرض، تتألم.

النوَّارة تشد جذعها، تحاول لمس أمانيها البعيدة، شارعة أوراقها البضَّة نحو الشمس، تصل مرّة، وتتعثّر مرّات، ولا تكف عن المحاولة.

تسقط كورقة خريف من أثر الحُمَّى، ارتعاشة جسدها النحيل تنفض كل بريق العمر الزائف، انقلاب عينيها لحظة الغرغرة تُقلِّص مشهد وجودك التافه، وضآلتك في هذا الكون.

يركض، أركض، نركض فوق برك دموعنا المنهمرة إلى المشفى القريب، في عنبر الرعاية نقضي ليلتنا الأولى.

الأَسِرَّة المتراصة قوالب من وجع تحوي أجسادًا صغيرة مُنهَكة، تعزو أطرافها خراطيم المحاليل، وإلى جوارها مقاعد إسفنجية تستلقي عليها إحداهن. تزيح نقابها، تجمع شعرها أو تحرر حجابها قليلًا استعدادًا للنوم. تستطع تمييز عدد الليالي التي قضتها كلٌ منهن هاهنا، فتلك التي كثرت حوالها الحقائب وضمَّت إلى مقعدها آخر مُقابِلًا، وصنعت منهما سريرًا وتقدم خدماتها للجميع، على وشك الخروج في الصباح. والأخرى التي تغطُّ في نومٍ مُتعِب هذه ليلتها الثالثة. أما أنا الوافدة الجديدة ظللت طوال الليل أتقلَّب فوق آهات صغيرتي الجَزِعة، محاولة تهدئة روعها، وداخلي ألف بركان لا يهدأ.

الغربة، العجز، قِلّة الحيلة، الأنفاس المُثقلة، نهنهات الصغار، وأشياء أُخرى تُمَرِّر الليلة ثقيلةً، لا يُهَوِّنها إلا دفقات مكتوبة عبر الهاتف. في الليلة الثانية تزداد الاحتمالات، أسرق بعض النوم ويسرقني الصحو.

كل الابتسامات التي تغَنَّوا بها لا تضاهي تلك الحفلة الصباحية المقامة على ثغر صغيرتي، والتي تَمُنُّ بها علينا كلما نفد صبرنا. لذا ورغم شحوبها نتشبث بطيب الرائحة.

في الليلة الثالثة نُمَنّي أنفسنا بالخروج بعدما أَلِفنا الجيرة، وأعددنا أطباق الدعم للوافدين، لكن الطبيب يأبى. في الليلة الرابعة نحاول تدارك تلك الحياة التي تركناها في الخارج، وإن كنا قد امتلكنا يومًا ما حياة حقيقية خارج أسوار المَشفى.

أخيرًا يمنحوننا تأشيرة الخروج.. نمرّر أعيننا على كل الأشياء المُصَغَّرة من انعكاس الوطن.. نفتِّش داخل جيوبنا لنرصد ما تبقّى لنا بعد حملات الاستنزاف المادي والمعنوي، وهل عملاتنا الباهتة يمكن صرفها خارج تلك الجدران، أم أنها بضاعة كاسدة كتلك الأفكار التي حملناها يومًا، فقلبت كفَّيها في أسف عند أول محنة؟

ألملم أشياء صغيرتي، أُقرض بعض النزلاء الأشياء التافهة – الثمينة في تلك البقعة– أحملها ويحمل الحقائب، نتوكأ بعضنا على بعض للخروج، بينما بعضٌ عزيزٌ منيِّ ما زال عالقًا هناك في غرفة الرعاية. يُخرِجُ هاتفه ويلتقط صورة لنا احتفالًا بالحدث، وفي الخلفية لوحة حملت عبارة «الرعاية المركزة أطفال»..

الصورة التي لم تكن الأروع أو الأمثل، صارت أيقونتها الأصدق، ملاذها الآمن كلما قرأت عن أساطير الحب.

فوارغ

(١)

كدبوس صغير أخذ في الارتشاق هنا وهناك بكومات القمامة؛ بحثًا عن عبوات بلاستيكية فارغة.. يجمع كنزه المتسخ بجوال قديم ملطخ، أسنده إلى جوار كومة قريبة، بينما يفرغ محتويات أحد الأكياس؛ تظهر كتلة بلاستيكية متعددة الألوان، يستخرجها فإذا هي بسيارة صغيرة أوقفها على عجلتها الواحدة المتبقية، مسح عنها ما علق بها، وأخذ يسيرها على الأرض عنوة بيده، ابتسم، أخذ يعدو منحنيًا بالسيارة، ضامًّا شفتيه، مُصدرًا صوت «فووووو»، ابتعد قليلًا عن بقعته، وبينما هو مستغرق في لعبه، يتراءى له جامع «الكرتون» والورق المقوى، وقد نزل للتو عن عربته «الكارو»، يلتقط قطع «الكرتون» المبعثرة يغريه الجوال بمحتوياته، يسحبه ناحية العربة يهرول الصغير نحوه يطالبه بالكف، يزجره.. يتشبث الدبوس بما جمع يدفعه الرجل بعيدًا، يلقي بالغنيمة على سطح العربة، يستحث حماره للرحيل، يلتقط الصغير قطعة كبيرة من الحجر، يقذفه بها.. يصيبه في جانب رأسه.. يتأوه، يتوعده، يركض الآخر تاركًا لقدميه النحيلتين العنان، قابضًا على سيارته البلاستيكية، وما إن تبتلعه الأزقة يعاود تحريك السيارة ذات العجلة الواحدة.. «فوووو»

## (٢)

**يقلِّب جيوبه بينما هو جالس على كرسيه، باحثًا عن جنيهات تائهة، علَّه يستطيع طلب كوب آخر من الشاي، يتقي بها نظرات القهوجي المتأففة من جلسته التي طالت في انتظار أحدهم.. هل توقفت البالوعات عن الانسداد والصنابير عن التسريب واستغنى الناس، أم أن شهادته الجامعية ومظهره المهندم يوحيان بأنه «صنايعي» فاشل لا يليق بالمهنة؟ جيوبه خاوية على عروشها، وعليه أن يتجاهل النظرات، تأوهات معدته التي لم يزرها الزاد، أفكاره المتصارعة عن التزاماته التي لن يستطيع سدادها، وصوت التلفاز الذي ينقل فعاليات مؤتمر الشباب، فقد تعلقت كل حواسه بصوت ارتطام الصفائح المعلقة بذيل الجرو.. عدوه هنا وهناك فزعًا، ونباحه المستغيث بينما الأولاد من حوله يمرحون ويقذفونه بالحجارة.**

## (٣)

**جلس يتأمل العرض المكرر من مكانه البعيد؛ تعلقت عيناها بتعابير وجه جليسها، أزاحت شعرها المتكسر بدلال من أمام عينيها، كانت عروقه منتفخة، ووجهه محتقنًا يشوح بيديه وكأنه يخطب في ميدان، يعدل من الشال الملتف حول رقبته كلما سقط طرفه، يندد، ويشجب، ويستنكر، ويرفض الغرق في الثقافة الاستهلاكية، تلقى مكالمة على هاتفه «الآيفون»، غمغم بكلمات مقتضبة، انسحب للشرفة ليستطيع الحديث.. عاود ليستأذن رفيقته في الرحيل، خرجا معًا.. جمع خلفهما «مجات النسكافيه»، وقد اصطبغ أحدهما بطلاء شفاهها «الشانيل»، بينما استقر في قاع الآخر بقايا سيجارة «المارلبورو»، أحكم ربط حذائه «الباتا».. مسح الطاولة بفوطة صفراء، وكذلك نفض التراب عن يافطة الحزب جوار الباب، ومسح معها كل الكتب والمقالات الثورية التي حفظها داخل خزينة أحلامه في الذاكرة.**

## (٤)

كان بائع الربابات الخشبية يعزف بالخارج مروجًا لبضاعته، بينما يملأ الصبي الزجاجات المغسولة للتو بالقمع والكوز من جردل الماء القابع أمامه، أنهى مهمته ليناول الزجاجات لآخر يتولى غلقها ومسحها بخرقة بالية، يلصقون عليها ورقة تحمل اسم أحد أنواع المياه المعدنية، يعرضون فوهتها لنار خفيفة تساعد على انكماش قطعة السوليفان حول الغطاء لمزيد من الأمان! يعبئونها داخل صناديق ورقية تحمل الاسم نفسه.. وبائع الربابات ينوح باللحن «يا بهية وخبريني ع اللي قتل ياسين»..

# حقائب الضَّباب

الماء المتدفّق طبطبات حانية. لم تعد تجد سواها في الجوار. تزيح الستارة، تتطلع إلى المرآة المُضَبَّبة، تمشّط سطحها بحثًا عن كلمة كانت هاهنا يومًا يخطها على سطح الضباب بإصبعه، لملمها الوقت، ومضى.

تبتسم للا شيء، وتخطّ بعرض المرآة كلمة «طظ».

من قبل خطت «أحبني»، «أستحق الحب»، و»أحبي نفسك»، ثم لم تجد في الانتظار أبلغ من تلك ال»طظ».

تنخرط في وصلة بكائها الصباحي، وهو خلف الباب يغطُّ في نومه العميق، وبينهما ألف باب من وجع.

لماذا منحها كل شيء دفعة واحدة في سلّة وعود يزيّنُها الشغف، وسلبها كل شيء على دفعات متتالية؟

هي لم تعده سوى بالبقاء. فلماذا يقيِّدها الوعد حدّ إزهاق الروح، وهو الذي وعد بالكثير تحلّل من وعوده شيئًا فشيئًا؟

كانت قادرة على المنح. اقتسمت معه الخبز والابتسامة، وتراصَّت أحماله فوق كتفيها، وما إن سقطت قذفها بكل الاتهامات التي تراصَّت فوق رئتيها، فأضحى الخروج من هوّة الحزن خيالًا محضًا.

أظافرها التي تكسَّرت في تمهيد الطريق، وصوتها الذي علا أسفل ثقل المسؤولية، ورقَّتها المسحوقة بين ماكينات الحياة اليومية تمهِّد الطريق لتمرَّ قافلتهم بسلام.

وهو ما زال يطلب منها المزيد، بينما تَنَحَّى على جانب الطريق مُصَوِّبًا نظراته إلى رُقع ثوب أنوثتها الذي بلي سريعًا، كاشفًا عن ثوب أمومتها الذي تعلّق أطفالهما بطرفه، بينما يستبيحهم الغبار دون رادع.

أن تغتالك الوحدة التي عاديتها يومًا بعد طول ألفة بالحبل نفسه الذي أخرجك يومًا من غياهبها هو العدل.

لماذا لا تفك قيد عنقها، وتحمل قرابين البكاء تسترضي وحدتها، تحمل ما تبقى من متاعها وتمضي إليها طالبة المغفرة؟

تعد حقائبها للرحيل، تحاول جمع الضباب داخل دفتي الحقيبة، وما إن تنتقل للحقيبة التالية يتبدد.

يعرقلها بكاء الصغار، وفردة حذاء واحدة عليها أن تبقى للبحث عن زوجها أو المضيّ حافية فوق نصال اختياراتها السابقة.

# حوالة بريدية

لم يدرسوه في المعهد أن تلقي السباب جزء لا يتجزأ من عمله.. لكنه اعتاد بخبرته الطويلة نسبيًّا أن يدرِج الأمر ضمن مهامه اليومية.

لذا لم ينفعل كثيرًا في ذلك اليوم المزدحم عندما تردد على أذنيه سيرة الست الوالدة بعبارات غير لائقة.. ولم يفسد إفطاره ذكر أبيه وعائلته وأرباب عمله بأشنع الكلمات.. انتهى من التهام شطيرة الفول، وأحضر زجاجة المياه الغازية، وبدأ يلقي دفعاتها الباردة داخل فمه، بينما تتصبب صفوف الجماهير عرقًا أمامه، ويرمقونه بنظرات نارية حارقة .

تارة يكتفي بالصمت وأخرى يعيد إعلانه عن عطل الشبكة، يمازح زملاء العمل، يعيد المحاولة على فترات، والزحام يبتلع فوران الجميع حتى يندلع حريق أحدهم، فهذا يتحدث عن عمل يود العودة إليه، وتلك تصرخ أن عليها إحضار طفلتها من الروضة، والطفل الذي تحمله أمه يبكي من الاختناق.. بينما يحاول البعض اتباع أحدث أساليب الفهلوية لتخطي الدور فيتلقى وابلًا من غضب الجميع .

وهو يسند رأسه على كفيه المتشابكتين ويريح كتفيه على ظهر مقعده بينما تخرِج ورقة وحيدة من الطابعة الوحيدة كذلك، التي تعمل بمكتب البريد.. وهي تتمخض عن ورقة كل خمس دقائق؛ لذا فعليه الانتظار عشر دقائق كاملة ليتسنى له وزميله إتمام العمل بالمناوبة.

كان الجميع ينظر إلى تلك المروحة الموجهة على قفاه متمنين صفعه، وزجاج نظارته السميكة لم يحل بينه وبين قراءة ما يجول بخاطرهم..

الحقيقة أنه يعذرهم في معاناتهم.. هم يعلمون أن المنظومة خربة وأنظمة الحواسيب لن تتحمل، وقرارات دفع المصاريف الإدارية لطلبة المدارس بحوالة بريدية غير مدروسة، ولا يملكون سوى صب لعناتهم عليه، لقد اعتاد الأمر منذ أن كان في عمر أبنائهم .. كانت مدرسته لا تكف عن الصراخ بوجهه.. فلا أحد يشكو إليه ولا سبق أن رأت له ولي أمر عقب أي وصلة توبيخ.

ربما قد منح موهبة تضاهي عمل الإسفنجة في تلقي الإهانة، تقف المعلمة أمامه تنعته بالبلادة والفشل، تحمله مسؤولية اللوحات الممزقة والورق الملقى بجوار السبورة وهو يبتسم، لكنه كان يبتسم لمشهد ذلك القلم المضيء الذي رآه داخل «فاترينة» المكتبة على الناصية..

يتخيل أنه استطاع جمع ثمنه واقتناءه.. يمر بين زملائه ملوحًا بالضوء الأحمر في عيونهم، وهم يتطلعون إليه ولأول مرة بانبهار وحسد شديدين.

وقتها كانت المصروفات تسدد مباشرة لخزينة المدرسة، ينادون عليه في الطابور كل صباح لسرعة السداد، ينكمش داخل مريوله ويشيح بوجهه عن النظرات الثاقبة. تترسب أيامه الأولى على جدران ذاكرته.. تمامًا كذلك البخار البارد على سطح زجاجة المشروب يصيح به أحدهم:

– ما تخلص يا بارد يا ابن البارد

وهو لم ير أباه ليعلم إن كان باردًا أم حارًّا، لكنه يتذكر أمه جيدًا تآكلت يداها من العمل في البيوت لتستطيع تربيته، أخبرته بعد إتمام دراسته الإعدادية أنها لا تستطيع تحمل أعباء إلحاقه بالثانوية العامة، وأن عليه أن يرضى بنصيبه:

– معهد بريد؟

– وماله يا ابني معهد البريد ثلاث سنوات وتتعين في وظيفة تشرف..

يبتسم على ذكر الوظيفة المشرفة.. يسبه الرجل الواقف أمامه من جديد..

ينتفض من مكانه حاملًا مقعده عاليًا، بينما يطلق صرخة مرعبة، يلقيه على الحاجز الزجاجي.. يُشرخ اللوح دون أن ينكسر، يتجمع زملاؤه ومديروه محاولين تهدئته دون جدوى.. يسمع صوت كركبة الطابعة بينما تخرج الورقة المطلوبة.. يأمر الجميع بالانفضاض من حوله، ينصرفون إلى أماكنهم صاغرين أمام هياجه غير الاعتيادي، وتوهج عينيه احمرارًا، يهتف في الواقفين أمامه ما دمنا دخلنا هذا الجحر معنا فعلينا التحمل..

يلقي بالورقة إلى الرجل الذي ذهل من بعد غضب، يعاود جلسته الأولى مريحًا رأسه، بينما يتأمل تكسر ملامح الجميع من خلف الساتر الزجاجي المسرطن.

# شيزوفرينيا

(١)

كانت تتحسس ذلك الانتفاخ الحميمي من آن لآخر علها تلامس يد الجنين أو قدمه مرة أخرى، تتجول بحذاء مريح تمامًا كما أخبرها الطبيب.. تقلب السماء بحثًا عن علامة ما وتمشط الموج الأزرق بحثًا عن ملامح صغيرها، تحتضن رئتيها النسمات وطبطبات اليود..

إلا أنها سرعان ما ضمت سترتها جيدًا لتخفي فطرتها التي وصمت بها باستخفاف من قبل العابرين، وتبدلت فرحتها بالخزي بعدما صبوا عباراتهم المخجلة داخل أذنيها وحاوطوها بالأسئلة حول ما فعلته، وما فعل بها متجاهلين خاتم زواجها وبقايا المروءة..

(٢)

صورة الشقراء ترضع طفلها داخل البرلمان كانت حديث مواقع التواصل الاجتماعي، لذا أعاد نشر الصورة كأيقونة للأمومة..

ذيلها بوصلة في مديح التحرر والاستقلالية، وشن حروب الكلمات على المستنكرين.. انتفخت أوداجه وكاد أن يحطم لوحة مفاتيح حاسوبه الشخصي.

وفي محطة القطار عندما رآها داخل مركز دائرة الجوعى، والعيون الذئبية تترصدها تستطلع ما خلف ساتر الرضاعة، بينما هي تدور في فلك الصغير وحده تمنحه بعضًا منها لينعم بالسكينة، رمق الأم بنظرة امتعاض متسائلًا لماذا صُنعت زجاجة الإرضاع؟!

(٣)

كان يشوح بمطواته قرن الغزال في وجهي زوجته والطبيبة، وسحابات الدخان السوداء تحلق فوق شعره الأشعث، محذرًا ومتوعدًا إذا ما أخبرنه أنها تحمل بين أحشائها أنثى، وزوجته الهزيلة ترتعد بوجه مصفر، عيناها تتوسل الطبيبة ويداها تحاوطان الحِمل النابض داخلها..

لم تستطع الطبيبة أن تستطلع شاشة السونار جيدًا لكنها أخبرته بكونه ذكرًا حقنًا للدماء، فخرج إلى أمه بوجه متهلل، مقبلًا يديها وقدميها لتطلق الأم زغرودة انتصار على بنات جنسها!

(٤)

أمام باب المدرسة الشبيهة بمعامل التفريخ، اعتاد المجذوب أن يختار له موضعًا للاستكشاف، يحاول عد التلاميذ في أثناء تدافعهم عند الانصراف، بعدما نتفوا زغبهم بالداخل، وقصقصوا الأجنحة، فإذا ما أخطأ العد عاود في اليوم التالي ليبدأ من جديد.. حتى أنهكه الأمر فسلم جسده لرصيف الكشك المقابل الذي انطلق من مذياعه الصوت القديم «مادام في كل جانب أفواه على أرانب»

فصاح معترضًا.. كتاكيت.. كتاكيت وظل يرددها بينما يحوم حول المدرسة.

# محاولات للونس

العجوز الذي تخندق داخل حجرته أعلى البناية ولم يعد قادرًا على نزول الدرج سوى لقبض المعاش، قرر أن يشتري من الونس عصفورين، يربط بذيولهما الآمال ويخصان أذنيه بالزقزقة..

يغلق بابه والنافذة، ويدخن سجائره اللف، ويتابع قنوات وصلة الدش، العصفور الذي ماتت وليفتاه مرتين، واحدة تلو الأخرى، قرر أن يضرب عن الطعام.. خفت صوته بعدما كان يملأ الكون تغريدًا.. بعثر الحَبّ.. رفض الماء.. والعجوز الذي لم تساعده خشونة المفاصل أن يبتاع وليفة جديدة، قرر أن يفتح الشباك.. عل عصفوره، يرضى بمتابعة الطيور البلدية السابحة في فضاء السماء.

العصفور الذي تأرجح على حافة الاحتضار عاود الحياة.. كانت تناغيه عصفورة رمادية أخذت في الاقتراب يومًا بعد يوم من سور السطح إلى حافة الشباك، ثم اطمأنت للتجوال داخل الغرفة والتصقت بالقفص.. كل صباح يفتح العجوز نافذته لتمرق الصغيرة وتشارك العصفور الحب والترنم، القفص الذي خلا فجأة بعدما نجحت محاولات منقارها في فتح الباب للوليف أعاده لغلق نافذته من جديد..

إلا أنه عند عودته من خروجته الشهرية الوحيدة، يقلب السماء جيدًا بحثًا عمن تجيء خفيفة لتحرره من غرفته المعلقة بنهاية البناية.

# أحمر قانٍ

دوامات اللون التي زحفت فوق الملاءة البيضاء تقلق مضجعها.. ذلك النزف المستشري الموصول بحبة القلب يمتص روحها من أمدٍ بعيد. البنت التي عانقت الأساطير نعومة أظافرها كانت تحب التحليق بعيدًا خلف خيالها الجامح، وأمانيها العالقة بأطراف النجوم.. كلما زادت من ثقل دفعتها للخلف انطلقت أرجوحتها للأعلى.

ما لها اليوم مركبة الحياة لا تسير إلا للخلف مهما كان عزم المحاولة؟

الصغيرة التي داهمتها الأنوثة ذات ربيع رفضت الانسحاق خلف وطأة ذلك اللون القاني، تجاهلت سيلان الخط الأحمر.. تشبثت بحبال الهوى، واستأنفت اللعب. كانت تدفع بكل قوتها مُتحديةً الألم، تاركة لضفائرها الذهبية حرية التخبط على وجهها البضّ الذي ما زال يأبى الإفصاح، وإن وشت به العيون العسلية. اللعب كان شرنقتها التي تحتفظ داخلها بالطفولة.

لا يهم إذا ما كانت ساقها مثقلة بشاش وجبس، أو روحها عالقة بحاجة وفقد.

تتزعَّم عصابة الغلمان، وتحتكر الركلة الأولى. وسرعان ما تترك الكرة لأول من تطالع داخله الحزن دون حديث.

هل اعتادت على أن تترك بعضًا من بهجتها تَرضيةً لكل من تألَّم؟ أم أن روحها المبعثرة على المغدورين والعطشى، وعابري السبيل كانت مُحاوَلة تجاهل كل تلك النصال النافذة من الظهر للصدر؟

تمامًا كجلستها اليومية أمام الطبق في انتظار أن تضع لها جدتها وجبتها المفضلة، ويزيد جدّها الحليب الدافئ. والتي تنتهي بحمل أطباق الشعرية لرفاق اللعب - دون تذوقها- فهي لن تضحِّي بطعم جديها اللذين تركاه في فمها قُبَيل الرحيل.

هي لا تجيد التسليم بما حدث، فقط تحاول تغطية ذاكرتها العارية كي لا تصعقها شحنات الحنين.

تتجاهل حبها الجارف للصغار؛ كي لا ترى نظرات الخوف في عيون أمهاتهن، محاولاتهن الفجّة لتخبئتهم، ومصمصة الشفاه والدعوات بالعوض.

تتجنب الألم بالمُسَكِّنات، وتبغض زيارات الأطباء الدورية.

دائرة النزف التي صاحبتها من أرجحة الماضي لخضخضة الحاضر اتسعت أسفلها وكادت أن تبتلعها.

وبينما كانت تتجهَّز لتداعيات الفقد المنهكة، ألزمها طبيبها بملازمة السرير لحماية ذلك الجنين المتشبث بالحياة.

وهي لم تبال، بعض الأشياء تفقد قيمتها بالانتظار.

عليها أن تحمل الزهور لتبارك حفل العاشقين اللذين ترعرع حبهما على ساحة أمومتها،

هناك سوف تلقى كل الأبناء الذين وُلِدوا من شق القلب. توزع كعكات الدعم مغلفة بابتسامات الرضا وتنثر عبير الحكايا، بينما يقطر منها الحلم أحمر قانيًا.

# ألعاب ناريَّة

(١)

**الخَضار الذي طلّ من شاشة «السونار» لم يكن عطبًا أصاب الجهاز، ولا أضغاث أحلام أصابت الطبيب من فرط الإنهاك .**

**الغرس الذي نبت داخل أحشائه عقب الحادث كان مصدره امتدادها، وهبته إياه دون تردد عندما سألها الطبيب مشفقًا:**

**–  أتتحملين العيش بكلية واحدة؟**

**––  بل خذ الاثنين معًا وانقذ الولد**

**قلبه المعصوب لم ير الربيع المنتشر، وبصيرته المعطوبة لم تتجاوز دموع زوجته عند الإفاقة، تلك التي لم تُجر فحوص التبرع عندما تعلق الأمر بحياته.**

(٢)

«حادي بادي»

أيصلح الحذاء أم يجلب الطعام؟

«كرنب زبادي»

زبادي، صغيرته تنتظر الزبادي

أَنظَر الرجل متهكمًا إلى ثقب نعله اليوم بينما يرفض كعادته أخذ «الشاي» أم أنها حساسيته المفرطة تجاه الشق الذي ظهر بوقاحة منتصف الشهر دون ترتيب مسبق؟

ما ضرّه من تلك النافذة الصغيرة التي تُزيد فرص التهوية ليجلب الطعام إذن للبطون الخاوية؟

وبينما زوجته تحمل عنه الأكياس وعبء اليوم، باغته الصغير بالسؤال:

– بابا جبت التابلت؟!

(٣)

**كلما تحدث الخطيب على المنبر عن عقوق الوالدين غادر المسجد، فكل ما يتذكره من طفولته البعيدة بعدما تفنن أبوه في الصفع والركل جزاء تمزُّق بنطاله، إثر سقوطه من السلم الخشبي المخصص لجلب البقالة في محل عمله الأول، صالحته أمُّه بآخر جديد، اختاره بنفسه من محل الملابس، وأخبرته عند العودة أن يبحث عن سبل تسديد القسط.**

(٤)

**اليرقة التي لم تجد داخل بيتها الحب سوى داخل أطباق الطعام، لم تستهوها أوامر المنع القاسية، ما إن استطاعت الخروج من الشرنقة، حتى انطلقت نحو السماء كشرارة من طلقة ألعاب نارية زاهية اللون، فعَلَقَت أجنحتها بخيوط العنكبوت المتربص بالجوار.**

# كومة الفراء

اليوم الثالث، وعبثًا أحاول، وتهددني نظراتها الثاقبة.. أقترب.. أتودَّد.. أحاول.. تتقوَّس.. تتحفَّز.. تُشهر أسلحتها في وجهي. قبل يومين كانت أنفاسها اللاهثة المضطربة تتبعني أينما حللت، أذناها الحمراوان، أنفها المحتقن، وقسماتها المتوترة، علامات تُنبئ بحدث جلل.

كلَّما ابتعدت تلحقني، تدور حولي صارخة في وجهي. أمدُّ يدي مُحاولةً تهدئتَها، فتلقي جسدَها الرهيف المنتفخ بين يدي.

أُمسِّد ظهرها الذهبي فتتقلّب بين كفيّ متألِّمة. أُعِدُّ لها مُتَّكأً ليّنًا، تدور حوله دورتين، تعاين أبعاده بجسدها، وتعود لدورانها في فلك البحث عن لا شيء. أمنحها بعض الطعام وكل الوقت، وتمنحني نظرات متثاقلة ممتنَّة.

بين قدميّ بينما أجلس تُلقي كيسها الأوَّل مُلوَّثًا ببضع قطرات الدم، تنظر إليه غير عابئة وتمضي نحو المتكأ.

أحمل الكيس بأصابع مرتعشة، أضعه إلى جوارها فتحول عنه. أحضر المقص في محاولة تحرير المولود وأضعه جوار أمّه لتنظفه فتعترض، أحاول تنظيفه ببعض الشراشف. أتلمَّس نبضه فلا أجد، أجرب تدليك صدره دون حول لي ولا قوة، يفاجئني عودة النبض الضعيف.

أدفئه وأحاول إرضاعه قطرات الماء المُحَلَّى بالسكر. استشعر دفء جسده الناجي. وأمه تتلوَّى، تئنّ، تصارع لجلب النور من عتمة جوفها، يشرق من رحمها ثلاثة صغار يخرجون واحدًا تلو الآخر. تنظِّفهم من اللزوجة باللعق، وتنهي الولادة بأكل المشيمة.

الوليد الذي لا يقوى على السير بعدما حظي برعاية أمه أخيرًا، بعدما تمسكت ببقائه عقب جزع الموت، حملته فوق رقبتها، أطعمته وكثفت الرعاية، أعادت تنظيفه وسكنت إلى كومة الفراء، تدثرهم بجسدها وتستشعر أنفاسهم الدافئة، وتنفض إجهاد اليوم بقسط من النوم العميق. في المساء استطاع الصغير الحركة، إلا أنني في الصباح التالي وجدته أنهى عودته القصيرة ورحل. الأم التي كانت تموء طالبة الطعام مهرولة ناحيتي بسعادة صارت تتحفز، كلما اقتربت تبخُّ في وجهي. تتشبث أسنانها بالصغير، وتغرس مخالبها في يدي إذا حاولت نقله.

ثلاثة أيام أعجز عن دفن ذي الفراء النافق، وتسدد سهام نظراتها نحوي! علامات استفهام جارحة وأنا أدور حولهم. أقلب السماء بحثًا عن حيلة ما أو جواب، والصمت إجابتي الوحيدة.

طبيب بحار

البحّار الذي مارس الطب سهوًا خمسة عشر عامًا أو أقل بقليل، كان قديمًا يرتاد مراكب الصيد صيفًا. ينثر شعره على متنها، ويغزل من قوافيه الشبك. البحر كان ملاذه الأول والأخير. يفتش داخل صراع أمواجه عن حلم كان يحياه يومًا ما في زرقة عينيها. يفرد شباكه محاولًا جمع ملامحها. يتجمع الصيادون، يسحبون الشباك المحملة بالرزق الوفير، يرددون أغانيهم، يشدو معهم. يطهون الطعام مما رزقوا، يأكلون كثيرًا، ويعملون كثيرًا، ويضحكون كثيرًا. في عالم البحر ينسى وحدته، إلا أنه على البر عليه أن يرتدي ثوبه المثالي الذي حبكوا جسده عليه منذ الصغر.

كان تلميذًا مدللًا يناديه الجميع بالدكتور لرجاحته وأدبه. عمل في العطلات مساعد خياط، نجارًا، وأشياء أخرى. إلا أنه عشق البحر، وتطلع لما خلف البحر.

شب وذاق الحب الأول، والجرح الأول، وأصبح يخشى على صورة رسمت له لا تعنيه حقًّا. ود أن يخرقها ويمزقها ويمتلك مساحات من التمرد والشطط، إلا أنه كان دائمًا ما يركن لحدود الإطار محاولًا عدم تجاوز الصورة.

صار كما أرادوا له طبيبًا، إلا أن الشِّعر غوايته والبحر دواؤه. كلما ضاق بأصوات النبض عبر السماعة وتأوهات المرضى، وسباب ذويهم، اشتاقت أذناه لارتطام الأمواج.

احتضن رائحة اليود وراقب النوارس المحلقة بحرية يتتبعها متسائلًا عن صاحبات العيون الزرقاء ما بعد البحر.

بدأ الشيب يغزو رأسه، وبعده يبحث عن جنية تحمله لعالم بلا قيود، لا قوالب، ولا روتين.

لكن الجنيات لا يظهرن على اليابسة.

البالطو الأبيض صار شراعًا حمله بعيدًا عبر به البحر. على الضفة الأخرى لا أحد يعرفه، لا أحد يلزمه بدور ما، لا واجبات، لا مسؤوليات. ولديه مساحات زُرقة ممتدة ليحيا ما يريد.

تزوج أول امرأة منحته الإقامة وحرية السباحة داخل عينيها. إلا أنه بعدما لفظ كل ما خلفه على الشط، لم يعد يدرك ما يريده فعلًا!

# حبة كرز ناضجة

أعانق الحلم كل صباح، أعيد توزيع مهامي المطوية وأستف الحقائب.. العمل.. الدراسة.. البنت.. البنت.. البنت.. وأنت، أين أنت؟ تحاصرني تلال الأواني الفارغة، وتلاحقني الملابس المتسخة عند الظهيرة.. يأتي المساء، أرفع له رايتي البيضاء طواعية وأستسلم لأول حفنة نوم لم تباغتني بعد!

الصغيرة تعترض.. تمتعض، تبوء محاولاتها بالفشل «ماما العبي معايا».. تترنح إرادتي ما بين المأمول والممكن.. أغفو، أسمع أحاديثنا المحفوظة عن ظهر قلب، ترددها وقد لعبت دورينا معًا.. تفتح بوابات وعيها الذي لم يتفتح بعد، وتستدعي أشخاصًا وأشياءً وأحداثًا، وألعابًا تمرق من أذنيا لتفتح ستائر الجفون.. أتأمل حبة الكرز التي كانت تنبض بالأمس بين أحشائي وأتساءل متى نبت لها هذا الخيال الوارف؟

أنت بحاجة إلى أن ترحل عنك.. أن تمكث في أبعد نقطة بعيدة عن ذاتك.. تكف عن الدوران خلف أفكارك داخل طاحونة الوقت.. أن تسكن في تلك اللحظة ما بين الصحو والنوم بعيدًا عن مطاردة الأوهام واغتيال الأماني المعلقة، ألا تسمح لجراد الخوف المتكاثر داخلك أن يلتهم مساحات حصادنا المشترك.

يدهشك أنك كلما جذبت الخيط أجذبه بالمقابل غير عابئة باحتمالات الانقطاع، الحقيقة أنني سئمت لعبة الشد والإرخاء، حررت قيد قلبي الذي طالما أدماه تشبثه بشعرة معاوية بيننا فأصبح الطرف بيدي..

لننزع معاطفنا الصبيانية، ونعلقها خلف باب النضج ونطلق سراح مشاعرنا والأفكار على طاولة التفاهم.. فالحب ليس بساحة للمعارك.

«ماما العبي معايا».. نحترف لعبة البناء، نصنع عربات وطائرات، ونبني بيوتًا، وطواحين، وقلاعًا بسلالم عالية، تهون مشقتها إذا ما احتضنت كفها الصغير، واتكأت على ذراعك الوحيد بعدما فقدت بعضًا منك إبان صراعاتك اليومية.

«بابا العب معانا»، هلا شاركتنا اللعب؟.. انفض عن يدك كل غبار الماضي.. لنبني قصرًا يسع ثلاثتنا بحديقة غناء نزرعها كرزًا، وفراولة، ونباتات عطرية.. حبتنا الناضجة تناولنا القوالب الملونة، تمتعض إذا ما خالفنا التعليمات، تصر على أن نترك كل النوافذ مفتوحة كي تمرق الشمس، وتغلق الباب جيدًا كي لا يتسرب الدفء.

تشيد سورًا حول الحديقة، ترص أحواض الزرع على الجانبين، وتمهد الطريق لي كي لا يعيق لعبنا ثقل القدم التي فقدتُ إبهامها والاتزان.

# شواهد

(١)

**جلس جواري وسط الحضور، اعترض امتعض، طالب بالحديث من المنصة ليسمعه الجميع رغم علو صوته، ندد.. عارض.. هتف، التف الجميع حوله، منحوه دورًا على المنصة القادمة كي لا ينالهم نقده..**

(٢)

**منذ امتلأت أذناه بتصفيق الجموع عندما كرم كأمين اتحاد الطلبة بالتعيين؛ لكون أمه وكيل مدرسته الابتدائية.. يحمل فوق رأسه حلمًا يأكل العمر منه، يعشق الكاميرات، مكبرات الصوت، وعيون الجماهير.. ويجيد رسم الابتسامات السينمائية.**

**(٣)**

**عند الحديث كان يبلل لسانه جيدًا، متخذًا منه مصدًّا وسلاحًا ومعبرًا فصادق علية القوم..**

**فالعداء أول طريق المعرفة، والمعرفة يتبعها مشاركة، والمشاركة مُقنّعة بالصداقة، والصداقة تذكرة مجانية في عالم المصلحة.**

**(٤)**

**عند احتضاره، أوصى ذويه أن يضعوا فوق قبره منصة، كان القبر ملفتًا وبارزًا، إلا أن السوس سرعان ما التهم الشاهد فهوى..**

# أنفاس ثقيلة

إنه الصباح أخيرًا، كل الصباحات تجبرك أن تنتعل قلبك وعقلك، وتركض في متاهات المهمات الثقيلة كبهلوان، تحاول ألا تسقط كرات حواسك الخمس بينما تجويفا عينيك المنتزعتين تداهنان الشمس كي تشرق. الليلة التي انقضت دون نوم أو صحو، لم تكن ككل الليالي المكررة حدّ الملل ها هنا داخل الدار.

وهي منذ أن عبرت البوابة الرئيسية تجرَّدَت من رغباتها، وتطلعاتها، وأحلامها القديمة. كانت تعلم في قرارة نفسها أنها لا تستحق الحلم ولا الحب. ظلت تراقبه على مسافة، لا تجرؤ على المحاولة. وهو لم يرفضها ولم يقبلها؛ لأنه ببساطة لم يرها أبدًا.

طيف بقي أو مر، شفافة في حيز لا يسعها على رحابته، ولا تستطيع دفع ضرائبه الباهظة؛ لذا نفدت من ذلك الثقب حيث مثواها الآمن..

وجدت في أحاديث الكبار صوت أبيها الراحل، وجمعت من ابتسامات النزيلات باقة أمومة لم تستنشق عبيرها يومًا. لذا لم تتراجع عن فكرة التطوع داخل الدار. تحصل على الطعام، والسكن، والونس، ومكافأة رمزية تنفقها على النزلاء.

في الخارج تركت أُمًّا هجرتها ورحلت دون أن تكترث، وأَبًا يركض خلف مشروعاته في كل البلاد، بينما ألقى بها للمربيات يعاملنها كوظيفة. وأخيرًا عَمًّا يجني كل ثمار الأب ويسطو على ثرواته، وحبًا صامتًا بلا أطرافٍ حتى.

هي اكتفت بانتظار الفارس الذي يحملها فوق حصانه الأشهب، أو سيارته الشبابية الحمراء؟ لا يهم.. تقف خلف ستائر شرفتها تتناول ملامحه بنهم تفسده مرارة الخوف، وتحتسي أوجاعها على مهل.. ها هي على مفترق الطرق بلا بيت.. أهل.. مال، وبلا مشاعر أيضًا..

بضعة صور قديمة، وبقايا ملامح مموهة من الماضي البعيد، وروح مكسورة ما تبقى لها داخل حقيبة زاد الرحلة.

كل الأيام المتشابهات داخل دار العجزة كانت بمثابة برنامج للتعافي. قليل من النوم، كثير من العمل، تلبِّي طلبات النزلاء، تستمع إلى شكواهم من آلام المفاصل، جحود الأبناء، وحكايات الصبا الذي ولَّى سريعًا.

تقاوم كل مرايا العمر كي لا تستطلع ملامحها المعجونة بالحزن والمخبوزة بالألم، تراوغ الماضي وتداهن الحاضر.

ربما أرادت أن تحجز لنفسها مكانًا ها هنا قبل أن تأتي إليه دون إرادتها، ككل الأشياء التي أجبرت عليها من قبل.

وأعادت اكتشاف روحها ومدى قدرتها على الدعم والمواساة، قدمت مخزون حنانها على موائد النهار، والليل سكين بارد يجز رقبة الذكريات، فيأتيها النوم متأخرًا كقوات الشرطة في الأفلام القديمة،

تلك الأفلام التي صحبتها ما قبل هوجة الألوان والشاشات المسطحة، وغزو وسائل التواصل الاجتماعي، تذكرها صور المفقودين المنشورة في الفضاء الإلكتروني أن هناك أُمًّا رحلت دون التفاتة. فما جدوى اجترار الخذلان بالبحث عمن تركك بإرادته.

تعتصرها الرغبة في إدراج صورتها ذات الضفائر والشرائط الحمراء، وتختنق رغبتها بقناعة الهوان.

اليوم السابق باغتها بلطمة في القلب، لم تكن تدرك أنها قد تجد أمها على حين غرة أمامها وجهًا لوجه. وجه لم تألفه، ولم تتفقد ملامحه التي لم تعرفها يومًا بعدما أخفى أبوها كل الصور. لم ترتم داخل حضنها الذي لم تذقه، لم تسبَّها أو تبصق عليها مرارة الهجر. كانت تتقنفذ داخل جسدها مشهرة أشواك الحماية، بينما تقود النزيلة الجديدة إلى غرفتها بعيون جامدة وصوت مرتجف.

السيدة التي تحمل أنفًا معقوفًا شكرتها. أخبرتها عن ابنةٍ تشبهها حال بينهما أبوها بوشاية من أخيه. تترقرق دمعة داخل عينيها تطويها بشبه ابتسامة داخل تجاعيد الوجه.

لم تربِّت عليها. لم تُقَبِّل رأسها. لم تفعل أي شيء سوى الهروب بعيدًا جدًّا لآخر نقطة ما قبل السور. بالكاد تحاول السيطرة على أنفاسها المتهدجة ورعشة الأطراف. كم من الوقت مضى ليأتي الليل؟ كم من الصبر يلزم لتبصر النهار؟

وكم من الدمع يطفئ نيران وجعها المتأججة؟

كل الأبواب مغلقة، وما خلفها تنبعث أنفاس ثقيلة. تتمازج مع دقات ساعة الحائط، حفيف أوراق الشجر بالحديقة، مواء القطط المتصارعة وخطواتها المضطربة داخل الأروقة العارية. يحاصرها فزع المعزوفة. تتحسس أناملها باب غرفة أمها وتتلصص أذناها على صوت ارتعاشات الشهيق والزفير، تتورط كل الحواس في محاولة اصطياد طرف الخيط..

إنه الصباح أخيرًا، والحقيقة مخطوطة داخل الأوراق الرسمية، وملف النزيلة بين يديها المضطربتين، وأمام عينيها الملتاعتين. تطالع الاسم لينهار بابا عينيها المؤصدتين وينهمر الدمع.

الاسم الثلاثي يبدد هاجس المساء، فالسيدة تحمل اسمًا مغايرًا، ووثائق طبية، وأنفًا يشبهها.

هرولت نحو غرفتها لتنهار بين يديها وتبكي كما لم تبك، والعجوز تمسد ظهرها وتلتقط حبات الدمع بكفيها، بينما تعاود طرح قصة الأمس نفسها.. السيدة التي تعاني من الزهايمر اعتادت أن تخبرها عن ابنتها صباح مساء.. تصحبها في رحلة يومية عبر متاهات العمر ودهاليز المشاعر، تكف عن نسج الحكي فجأة لتنسل خيوط الأسئلة:

– من أنت؟

– أين أنا؟

– وأين هي

– ومتى تسلل كل هذا الوقت؟

وهي أجادت رتق الأحاديث.. الإنصات.. الإجابة.. واستساغت الحكاية.

# تحليق يومي

العيون التي مرر الوقت في مراقبتها كل يوم، يستطلع ما تخفيه، لم تعد تمنحه شيئًا جديدًا، كل المعاني بهتت بالتكرار، الخوف.. شغف الأحلام.. حزن الرحيل.. ابتهاج الوصول.. ترقب المجهول.. اللاشيء..

كل المواقف متشابهة، أصحاب الأسفار الأولى يودعهم نصف ذويهم، عناقًا ودموعًا، ووعودًا، وتوتر البدايات.. معتادو السفر يحملون حقائبهم وحدهم وملامح غير مبالية، والعروس المسافرة بثوبها الأبيض نحو غد رمادي لا تعرف كنهه، العائدون بحقائب عامرة وأجساد ممتلئة من بلاد الخليج، وأولئك الذين لا يحملون سوى خيبات الأمل وانكسارات الروح.. ولافتات تحمل أسماء مرموقة ينتظرهم سائقون، وجهات، وبدل باهظة.. موكب توديع الحاجة بالزغاريد، وانتظار جثمان أحدهم في صندوق..

كل المشاهد تعيد بعضها بعضًا وهو ينقل الحقائب، يجيب السائلين، يقرأ صفحات المارة.. ويعاود التنظيف.. يراقب إقلاع الطائرة، يتضاءل صخبها كلما ابتلعتها السماء، تصغر وتبعد حتى تتلاشى، تمامًا كحلمه القديم بالسفر، كان يجوب الأزقة يجمع أوراق الجرائد والمجلات من الشوارع كلما وجد صورة لبلد اقتصها ولزقها أعلى أريكته؛ حيث ينام في بيت أبيه.. ذلك الأب الذي لم ينهره يومًا، كان يحمل إليه الصور المنزوعة من الصحف، يفرغانها سويًّا ويحمله عاليًا؛ ليلصقها.. وينام مبتهجًا بكنزه الجديد.

**يصحو وقد تسرب نور النهار من كسر الزجاج منعكسًا على برج إيفل.. ساعة بج بن، وسور الصين العظيم، كلما كبر زادت الصور.. إلا أنه وبعد حصوله على شهادته المتوسطة ببضعة أعوام، بدأ ينزع عن حائطه الصور.. حلمًا فحلمًا.. بعدما عمل «كاشير» لدى البقالة الكبيرة على الشارع الرئيسي للحي، استبدل بقايا الصور بصورة كبيرة للكعبة المشرفة..**

**عمله بالمطار كان فرصة عظيمة لشاب مثله، إلا أن مراقبة الطائرات جعلته يعاود النظر إلى السماء بعدما اعتاد النظر أرضًا، منذ عمله في شركة النظافة الألمانية.. تراوده أحلام الطفولة كلما سمع عن إقلاع رحلة أو وصولها.. سرعان ما ينفضها عن رأسه، ويكتفي بالمشاهدة التي فقدت جاذبيتها بالاعتياد.. إلا أن الولد الذي بعده لم يتقن الخطو، حمل داخل عينيه العميقتين بعمر لا يملكه نظرة مختلفة، كان يراقب دموع أمه بذعر يتشبث بساق أبيه، ويوزع تساؤلاته على الجميع بينما يرفع رأسه عاليًا للطائرة المحلقة مشدوهًا محلقًا خلفها بالتمني..**

**الحقيقة أنه لم يكن صغيرًا عندما سافر أبوه إلى العراق وابتلعته الحرب فلم يعد.. إلا أنه ما زال كذلك الطفل يفرق الأسئلة ويتابع الطائرات..**

# طاولة بمقعد وحيد

المقاعد المتراصّة في حلقات تلتفُّ كلّ مجموعة منها حول طاولة دائرية كزهور مغلقة، الطاولات المربعة كذلك تضم مقعدين. وأنا وحدي في المقهى الغريب.

أبحث عن مكان يناسبني. المقعد الفارغ يذكِّرُني أن أحدهم لم يأت.

الكوب الفارغ يزجرني للرحيل.. وكل الفوارغ التي تلقَّفتني فامتلأت، وصارت حياتي خاوية على عروشها إلا من لحظات برّاقة ولّت، تخبرني ألا أنتظر أحدًا، وعليّ أن أصنع جلسة تناسبني، تُشعرني أنِّي قادرة وحدي على أن أأنس إليّ، وبعض مني تكوَّر جوار أحشائي..

قادرة على أن أستبدل الكوب وأنَحِّي المقعد الآخر وأرتشف انتصاراتي الصغيرة باستمتاع، بينما تنساب موسيقي مألوفة، وأتحسس بطنى المنتفخ بالأمل النابض.

يا غربة الأمكنة ماذا قد تنالين من غريب الروح؟ الروح الغريبة تجيد التحليق فوق ركام العمر المحترق. تهيم في الأرض ولا تتوقف أمام المقاعد الفارغة.

تنتقي وسط الزحام طاولة بمقعد وحيد لالتقاط الأنفاس وتكمل المسيرة. أدفع فاتورتي كاملة، وأحمل حقيبة خططي محبوكة المقاس على قدي وأمضي.

# ذات خريف

بابها المفتوح دائمًا كان بمثابة دعوة دائمة للدخول. عيناها العسليتان الغارقتان ما بين دوامات التجاعيد خلف نظارتها الطبية المزدانة بسلسلة ذهبية مُعَلَّقة إلى عنقها؛ تروغان كلما صوَّبت نظراتي إليهما. شعرها الفضي المجموع بعناية فوق رأسها يشي بجمال ذي نكهة أرستقراطية وَلَّى. تتابع مملكتها الحزينة من عرشها المعدني المتحرك مُصَوِّبة نظراتها إلى الفضاء، أو مداعبة شرائط اللاصق، محاقن الدواء، وعلامات الوخز على ساعديها.

أمُرُّ أمام غرفتها في رحلتَيَ ذهابي وإيابي وما بينهما، المشفى صار مقرًّنا ومستودعنا منذ احتُجزت أمي بأمر الطبيب. نتبادل وشقيقاتي مهام إطعامها، ومتابعة المحاليل، ومواعيد الدواء، وبث الطمأنينة داخل قلبها الذي أضعفته الأيام الثقيلة. شبابها المهدور ومعاركها اليومية للنجاة بنا دون دعم أب أو أخ.

نلتفّ حول سريرها الصغير، نحاصرها بالمزاح، ونتبادل النكات. تضحك على استحياء وتُخفي ابتسامتها سريعًا بكفها المبرقش، وتزجرنا مُحَذِّرة:

– الصوت يا أولاد.

تلك الليلة الخريفية داعبت حساسيتي المفرطة، لم أستطع النوم من شدة السعال.. خشيت أن أوقظ أمي، مضيت أفتِّش الممرات عن مريض دون رفيق يحتاج إلى مساعدة ما، وقد ألف التمريض ذلك منا؛ فتركوا لنا حرية التجوّل.

في العودة قبيل الفجر وجدت بابها مفتوحًا إلا أنها على غير عادتها كانت خارج الغرفة.

نادتني بصوت متهدج، سألتها عما إذا كانت تحتاج إلى المساعدة.

سألتني عن صحة أمي ومضينا في حديث طويل عذب، أخبرتني أنها تحب رؤيتنا حولها، وأن لها ابنًا وابنة، لكنها اختارت يومًا بينهما وبين طموحها الذي لم يعنها عليه أبوهما.

سافرت وتركتهما للأب بعد انفصال. نجحت وجنت الكثير من المال. جابت العالم وعادت إلى الوطن مثقلة بالمرض. أنفقت ثروتها في العلاج، وها هي أمامي عارية من أموالها، صحتها، والونس.

ترقرقت دمعة برّاقة ما بين جفنيها حرصت ألا تحرِّرها أمامي مستترة ببقايا قوة باهتة، نبرتها الهادئة داخل الممر الخالي حملت رنينًا خاصًّا، امتزج مع خلفية من حفيف الأوراق المتساقطة خلف الشباك الكبير المطل على حديقة المشفى، كمقطوعة إنسانية ثرية محفوفة بالألم والوحدة والخوف. إلا أن شفتيها حملتا ابتسامة امتنان صادقة لاستماعي والثرثرة.

أشرق الصباح، فأدارت كرسيها نحو غرفتها وتمنّت لي يومًا رائقًا.

عدت إلى أمي أباشر عقاقيرها والإفطار.

عند الظهيرة طرقت الغرفة المجاورة، فأخبرتني الممرضة بتوجس:

– الغرفة فارغة.

واتسعت حدقتا عينيها عن آخرهما، وأطنبت في تساؤل بينما تشير بإبهامها إلى الباب المغلق

– هل رأيت أحدًا؟

– لا، لم أر.

أمام فزعها المستتر تلعثمتُ ولم أجد إجابة أخرى. حاولت تجاهل الأمر برمَّته، إلا أنه في الليلة التالية قُبَيل الفجر كان صوت عجلات الكرسي المعدني يجوب الأروقة، بينما خلف الشباك الكبير كانت الأشجار عارية إلا من عصفور أخضر وحيد يعزف لحنًا متهدجًا.

«صولو»

أعزف على أوتار أوجاعهن العارية، أتنقّل بخفّة راقصة فوق نغزات الجروح، وأصنع من انكسارات عيونهن عقدًا أتزين به. متى تغيَّرت لهذه الدرجة لا يهم، المهم أني الآن آمنة داخل قشرتي الفولاذية أتَّقي سهامهم الجارحة ببدء الهجوم. أتلاعب بهن ككرات من طين أشكِّلها بأصابعي البضّة مطليّة الأظافر، ساخرةً من أظافرهن غير المنتظمة، وأياديهن الخشنة من الأعمال المنزلية.

أبادر واحدة بإشارة ساخرة إلى جسدها الذي ترجرج على جانبي الخصر، وأتساءل بجديّة عن خيانات زوج الأخرى المتكررة، وتلك التي على أعتاب الطلاق. أأسف كثيرًا عليها متسائلة عما جنته غير الخيبة، وسلة من الصغار. أتعجب من قبح الفتاة، وأتأفف لسوء أدب الولد.

أستعرض ملابسي وصور المدن التي جبتها للمرح، عدد الحفلات التي شنفت أذنيّ بتصفيق الجماهير، مجوهراتي وأرصدة البنوك، ومغامراتي الصغيرة كعزباء ما زالت محل اهتمام الرجال. الحقيقة أننا كلما كبرنا تزداد متطلباتنا، ونرفع سقف التوقعات. يومًا ما كنت تلك البلهاء التي تنزوي كلما سمعت مصمصة الشفاه، ودعواتهن الجارحة. كنت أبحث عن رجل أحتمي به من نظرات الصائدين، يعيدني إلى بيوت صديقاتي اللائي أغلقت كل واحدة منهن بابها في وجهي حرصًا على «سبع البرمبة» خاصتها. أبكي الليالي وأنا أتصفَّح صور الأطفال المحببة على هاتفي.

أنا التي لعبت معهن دائمًا دور الأمومة؛ فكنت الداعمة، وبئر الأسرار، وملاذ الحزانى. تكلمني إحداهن بتعالٍ من سقف إنجازها الأعظم بالتكاثر! وأنزوي جوار «جيتاري» أبثه ما في صدري فيمنحني أنينًا جنائزيًّا.

وأقع داخل دوامة من الأفكار عن الموسيقى، المال، القلب، الزواج كديكور اجتماعي، وحديث أمي عن شماتة الشامتين.

الحقيقة أن تلك الدعوة التي جاءتني من زميلات الدفعة، كانت فرصتي للثأر لذلك الماضي القريب من الخجل الذي جعلني أنزوي دائمًا داخل المجموعة، رافضة العزف وحدي، التلعثم الذي حال بيني وبين الرّد كلما أمطرنني بوابل من المزاح الجارح، وكل الأشياء التي تركتها لهن مصدّقة أني لا أستحقها.

لذا حرصت أن أكون آخر من تأتي وأول من ترحل، ولأول مرة أشعر أنني أتقدمهن على رأس الجوقة، أستمتع بعزفي المنفرد. أتركهن خلفي وأرحل ضاربة بيدي أوتار «جيتاري» الوهمي. يتمايل رأسي في نشوة وفوق رأسي ترفرف رايات النصر.

# مجرد أشياء

(١)

المسمار لن يستجيب لك بالطرق، ليست كل المسامير قابلة للثني، كلما أشبعته طرقًا أشبعك صدًّا، يصرخ في وجهك مطلقًا شرارته الحارقة وسخونة تلهب أصابعك.

(٢)

السكين الذي تأمنه بين يديك وتحركه كيفما تشاء عارضك.. لم تكن متحكمًا به قدر ما كان يمنحك أمانًا وقتيًّا، ما إن سأمك تسبب لك في جرح قطعي، نزفت كثيرًا، ولم تستطع لوم أحد سواك!

(٣)

دفاترك القديمة المتربة التي خطتها يدك، صارت شاهدًا عليك، كل الأفكار التي عارضت بها الكون تراجعت داخل خزائن الإهمال المغلقة، واستبدلتها بأخرى أكثر طواعية ومواءمة تليق بصورة معدلة من ذاتك، دفاترك التي كلما تخلصت منها عاودت محاصرتك كإنذار ممتد على مساحة العمر تخبرك بأشياء لا تجيد سماعها.

(٤)

**الصبي الذي كنت له بطلاً وملكًا، شب عن حدود مملكتك، رأى ما هو أبعد وأكثر إبهارًا، وتطلع إلى مغادرة العش، لن تجدي قصقصة جناحاته، سوف يحلق كيفما يشاء، فقط يمكنك ترك النافذة مفتوحة ليعود إليك كلما أراد متكأ من أبوتك.**

(٥)

**حيواتهم إما ضيقة لن تسعك، وإما فضفاضة عليك.. لن يجدي التنقل داخلها.. ما زال هناك متسع للحكاية، انتق حياة تناسبك.**

واحد كمالة

كان يقلب طبقه على مهل يزيد إضافاته رويدًا رويدًا، بينما أصب السائل الأحمر صبًّا فوق طبقي دون المساس بتوالي الطبقات.. يستعرض شعره الأسود المتدلي فوق جبهته بطريقة أقرب للطبيعية، يباغتني بالحديث عن روعة المكونات وتأثير التوابل، أتجاوب في الحديث يحدق داخل وجهي جيدًا يصوب نظراته لعيني مباشرة، ويتحدث بنبرة ملتهبة عن وجه الشبه ما بيني وبين الكشري، وجبة حارة ولاذعة، متعددة النكهات، ليست كلفائف «الكريب» وأطباق «الباستا».

أزيده من الشطة التي تغزل بها منذ قليل.. يتصبب عرقًا بينما أنتهي من وجبتي الأثيرة، ألتقم حبة من لبان النعناع أقف استعدادًا للرحيل، أخبره بينما أعيد المقعد إلى مكانه الأول

– قد أكون حارة ولاذعة.. لكنني أبدًا لن أقبل أن أكون طبق كمالة.

# قصص قصيرة جدا

# بصيرة

الصبي الذي كان يقود أمه الضريرة كلما أراد أن يحسم أمرًا أغلق عينيه، تلَمَّسَ الأرض من تحته، وتَحَسَّسَ الجدران من حوله، وتَتَبَّعَ صوت قلبه.. الصبي الذي رحلت أمه فجأة استبصر العمى.

# رقصة

ساحة الروحِ التي أفردتها البنت لصديقتها تغرِّد كيفما شاءت، طالما شهدت رقصتهما على إيقاعات الحلم. الحلم الذي ما إن رأته الصديقة معلقًا بظلال فارسها فرحلت دون نظرة وداع، يراود البنت صباح مساء. لم تتوقف عن الرقص يومًا تحاكي الدورين معًا إلا أنها عند عودة الأخرى بعد عقد من العمر توقفت قليلًا ثم أنشأت رقصتها الفردية.

# مقامرة

وكلما وضعت رهاني اخترتك أنتِ؛ فأخسر وتتضاءل فرص إعادة المحاولة. على طاولة الحب تتكوم التوقعات، والكل يحزن حتى بالفوز إذا ما فات أوانه بعدما تفقد الأشياء قيمتها. لذا خلعت نعلي واعتليت الطاولة، أُلملم من قلوبهن أيامًا تعوِّض نزف العمر في سبيلك.

# قفص

ثمة أوجاع لا سبيل للتخلص منها، كأن تتألم لأنك أنت، وأنت لا تريد نزع ريشك.. لا تقدر على صبغ روحك بأحدهم لا يشبهك، وكل شيء حولك يضيق بك، ما جدوى الألوان الزاهية والقلب معتم، الذهب تحاصرك قضبانه، صراخك ترنيمتهم المفضلة.. يبتسمون ويطلبون المزيد من التغريد، فإذا ما فقدت صوتك ولم تعد تطربهم؛ فتحوا لك الباب أمام السماء الفسيحة بعدما تفرط ريش جناحيك إثر التخبط داخل محبسك..

# الفهرس

قلب الصلصال ........................ ٧

ضغط ............................ ١١

الكتكوت أولا.......................... ١٥

مشهد علوي.......................... ١٩

مخاض................................ ٢٣

لوتس ............................ ٢٧

كيسا سكر  ......................... ٣١

رائحة النور.......................... ٣٥

فوارغ ............................ ٣٩

حقائب الضَّباب......................... ٤٥

حوالة بريدية ......................... ٤٩

شيزوفرينيا......................... ٥٣

محاولات للونس ........................ ٥٧

أحمر قانٍ............................ ٥٩

ألعاب ناريَّة ........................ ٦٣

كومة الفراء ........................ ٦٧
طبيب بحار ........................ ٧١
حبة كرز ناضجة ........................ ٧٥
شواهد........................ ٧٩
أنفاس ثقيلة ........................ ٨٣
تحليق يومي........................ ٨٩
طاولة بمقعد وحيد ........................ ٩٣
ذات خريف........................ ٩٥
«صولو»........................ ٩٩
مجرد أشياء ........................ ١٠٣
واحد كمالة ........................ ١٠٧
بصيرة........................ ١١٠
رقصة........................ ١١٠
مقامرة ........................ ١١١
قفص ........................ ١١١

## صدر للكاتبة

« للصفيح بريق خاص » مجموعة قصصية................ ٢٠١١

« لست بأنثى » مجموعة قصصية............................ ٢٠١٣

«الركض على الحبل» مجموعة قصصية.................... ٢٠١٤

## تعريف بالكاتبة

**شيماء زايد** ، كاتبة مصرية، من مواليد دمنهور ١٩٨٧، باحثة ماجستير أدب ونقد بجامعة دمنهور، مصممة جرافيك، قدمت عددًا من ورش القصة القصيرة، وأشرفت على عدد من الأنشطة الثقافية، إلى جانب المشاركة في العمل العام.

## للتواصل مع الكاتبة


http://www.facebook.com/Shimaa.H.Zayed
Sh.zayed1@gmail.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

للنشر
والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢   ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧